

حوار مع الفيلسوف الأمريكي: جون سيرل



ترجمة: أزراج عمر

بقلم أجراه الفيلسوف البريطاني: براين ماجي

موضوعات التجربة ليست مستقلة عن المفاهيم التي نملكها

• هناك شيء واحد يجب علينا أن نوضحه في البداية. لقد كنت أتحدث عن "فلسفة اللغة"، ولكن هناك مصطلحا آخر وهو "الفلسفة اللسانية" الذي يعادل تقريبا مصطلح "التحليل اللساني" الشائع الاستعمال، والذي يعني شيئا مختلفا. إن هذا يمكن أن ينتج عنه خلط ما لم نجعل التمييز واضحا. فهل أستطيع، لذلك، البدء بدعوتك أن تفعل هذا بدقة؟

• إنه بالإمكان جعل التمييز بسيطا. إن الفلسفة اللسانية و"التحليل اللساني" هما اسمان للتكنيك، أو للمناهج لحل المشكلات الفلسفية. إن فلسفة اللغة ليست اسما للتكنيك، وإنما هي اسم لموضوع البحث، وفرع من الفلسفة. سوف أقدم لك مجموعة من الأمثلة: إن فيلسوف اللسانيات يعتقد بأنه يمكن لك أن تحل بعض المشكلات الفلسفية التقليدية، مثل مشكلات الشك، وذلك بواسطة اختيار منطق التعبير العادي الذي نستعمله لمناقشة الارتباب، واليقين، والمعرفة "في حالة الشك" الخ. إنه يمكن أن يتم تحليل الاستعمال العادي للكلمات مثل "يعرف"، "يشك"، "يعتقد"، "يفترض"، "متيقن" وهلم جرا، كسبيل لمحاولة توضيح ما هي المعرفة، وما هو اليقين حقا. ولكن "فلسفة اللغة" هي اسم لموضوع البحث داخل الفلسفة. إنها تتشغل بمشكلات مثل "كيف ترتبط

الكلمات بالواقع"، و"ما هي طبيعة المعنى" و"ما هي الحقيقة، المرجع، والضرورة المنطقية". و"ما هي أفعال الكلام". إنّ هذه هي المشكلات النموذجية في موضوع البحث الخاص بفلسفة اللغة.

الفلسفة فن خلق المفاهيم

• إنّ فلسفة اللغة، مثل فلسفتك، تعتبر اللغة أساسية لحياة الإنسان وللفكر. لقد حاولت في مقدمتي لهذا الحديث أن اشرح لماذا، ولكن سيكون مهما أن اسمع شرحك أنت.

• حسنا. بادئ ذي بدء، اعتقد بأن دراسة اللغة هي في الغالب وعلى نحو حتمي مركزية للفلسفة. إنّ الفلسفة بمعنى له شأن هي بحث مفهومي. ولكن، بصرف النظر عن الفلسفة، أعتقد بأنّ اللغة مهمة لبعض الأسباب التي كنت قد اقترحتها. إنّها مهمة لفهم البشر والحياة الإنسانية. نحن نميل على نحو سابق للنظرية، أن نملك فكرة، وهي أن الكلمات، كما قلت (مقتبسا راسل)، شفافة، وأنه يمكن لنا أن نطبقها فقط على الواقع. عندما نبدأ في التحقيق في العلاقات بين اللغة والعالم، فإنّ الذي نجده هو أنّ تلك الأشكال من التجربة، وتلك الأشكال من العلاقات الاجتماعية التي نعتبرها بصورة مميزة كإنسانية تكون مستحيلة بدون اللغة. فاللغة هي ما يميزنا حقا وأكثر من أي شيء آخر عن الأشكال الأخرى من حياة الحيوان. إنّهُ يمكن أن يظهر جليا بأنّ تجاربنا تأتي إلينا مستقلة فقط عن أية لغة. ولكن فيتجشّتاين يعطي المثال التالي البسيط جدا لتوضيح اعتماد التجربة على اللغة: فهو يرسم مثلثا ويقول: «انظر إلى هذه كقمة وإلى تلك كقاعدة»، ومن ثم يقول: «انظر الآن إلى تلك القمة، وإلى هذه القاعدة» فإنّك ستجد نفسك تمتلك تجارب مختلفة. فالفرد يدرك فورا التجربتين المختلفتين رغم أن الشروط البصرية متماثلة.

ولكن من المستحيل أن تمتلك هاتين التجربتين المختلفتين بدون امتلاك بعض من اللغة الهندسية. إنّ هاتين التجربتين ليستا باللّتين يمكن لكلبي أن يملكهما ليس لكونه يفتقد إلى الجهاز البصري، ولكن بسبب كونه يفتقد إلى الجهاز المفهومي. فالكلمات التي يريد أن يقولها هي، إلى حد ما، جزء من التجربة البصرية. إنّهُ يمكن أن يبدو هذا، الآن، مثالا تافها، ولكن بوسع الفرد أن يقدم كثيرا من الأمثلة الأكثر أساسية. يقول لاروشفوكو في موضع ما بأنّ القليل جدا من الناس يمكن أن يسقطوا في الحب لو لم يقرأوا عنه أبدا. أعتقد بأنّ ثمة حقيقة عميقة كامنة في هذه الملاحظة، وأن امتلاك المقولات الشفوية هذه مثل "الحب" و"الكراهية" ذاتها يساعد على

تشكيل ما تسميه؛ فالمفاهيم هي جزء من التجربة؛ وإنه يمكن أن يكون من المستحيل حقا في عدة حالات أن تملك التجربة على الإطلاق بدون الإلتقان البارع للقاموس اللغوي المناسب.

• إن ما تقوله يعني حقا بأنّ العالم لا يتكون من الكثير من الكينونات التي نرفق بها نحن البشر بطاقات التعريف والأسماء، وبالأحرى، فإنّ موضوعات التجربة لا توجد بمعزل عن المفاهيم التي نملكها. وعلى هذا النحو فإنّ الكلمات تدخل إلى بنية تجربتنا ذاتها. أعتقد بأنه أمر مفاجئ لبعض الناس أن يدركوا بأن هذا صحيح أيضا بخصوص معظم الموضوعات اليومية. مثلا، فإنني أمسك فورا بهذا الكأس من الماء قبالة وجهي وأنظر مباشرة إليه عن بعد بوصات قليلة. وهكذا فإنني أملك فورا تجربة رؤية كأس من الماء. ومع ذلك فإنّه بالنسبة لي فإن امتلاكي حتى لهذه التجربة فليس بكافٍ لي أن أملك معطى بصرياً ومعيناً: فأنا أحتاج أن أملك أيضاً مفهوم "الكأس" ومفهوم "الماء" - وأكثر من ذلك فأنا أحتاج أيضاً أن أكون قادرا أن أحدد عناصر مختلفة بداخل المعطى البصري المعقد التي تنتمي إلى تلك المفاهيم. وهكذا، فإنني لا أستطيع حتى أن أمتلك تجربة رؤية كأس من الماء بدون العدة اللسانية. وهكذا فإنّ اللغة تساعد على خلق المقولات ذاتها التي نجرب فيها العالم.

نعيش تجربة العالم من خلال اللغة

• نعم، تلك هي القضية التي أنا بصدد الاهتمام بها؛ ولكن من الجوهرية فهمها بدقة. فأنا لا أقول بأنّ اللغة تخلق الواقع (الحقيقة)، وبالأحرى فإنني أقول بأنّ ما يعتبر كواقع - وما يعتبر ككأس أو كماء أو ككتاب، أو كطاولة، وما يعتبر كالكأس نفسه، وككتاب مختلف، أو كطاولتين اثنتين - فإنّه مسألة تتعلق بالمقولات التي نفرضها على العالم، وأن تلك المقولات هي في الجزء الأغلب لسانية. وأكثر من ذلك، فإنّه عندما نجرب العالم فإننا نجربه من خلال المقولات اللغوية التي تساعد على تشكيل التجارب نفسها. فالعالم لا يأتي إلينا مقطّعا مسبقا إلى موضوعات وتجارب: إنما يُعدّ كموضوع (كشيء) فهو مسبقا وظيفة لنظامنا التمثيلي، وأنّ كيفية إدراكنا للعالم في تجربتنا يتأثر بنظام التمثيل ذاك. فالخطأ، هو الافتراض بأن تطبيق اللغة على العالم يشتمل على إرفاق بطاقات التعريف التي تعرّف نفسها ذاتيا بالموضوع. ففي رأيي فإنّ العالم يقسم طريقة تقسيمنا له، وأنّ طريقة تقسيمنا الأساسية لتقسيم الأشياء توجد في اللغة. إنّ مفهومنا للواقع هو شأن مقولاتنا اللغوية.

اللغة شكل للحياة وطريقة لتنظيم العالم

• فالمسألة المهمة التي تتبع لاحقا حقاً هي أن البحث في اللغة يعني البحث في بنية التجربة. وبالفعل فإنه بحثنا عن طرائق بديلة لتنظيم العالم، وكذلك عن طرائق بديلة للعيش، ويمكن لأحد أن يقول أيضاً بأنه بحثنا عن طريقة بديلة للوجود.

• اتفاقياً، فقد كان هذا أحد موضوعات فيتجشتاين العظيمة في عمله الأخير - إنها فكرة أن اللغة هي شكل للحياة. ففي عمله المبكر فإنه قد جادل من أجل تصور أكثر انفصالاً للغة - إنها فكرة أن الجمل تعمل فقط لتصوير الوقائع الموجودة على نحو مستقل في العالم. ففي عمله الأخير يحتاج بأنه ينبغي علينا أن نفكر في اللغات على أنها تتداخل مع حيواتنا ومع نشاطاتنا في كل موضع؛ وأن الكلمات تعمل مثل الأدوات، وأنه ينبغي علينا أن نفكر في الكلمات بكونها مثل التعشيق التي تتعشق مع بقية سلوكنا.

• لقد كانت المسألة الأخرى التي أثرتها في مقدمتي لهذا النقاش تتمثل في أن الوعي الذاتي بخصوص استعمال اللغة هو الشيء الذي يميز قرننا على نحو خاص. وكما قلت سابقاً أثناء تقديمي لمناقشتي مع أ.ج. آير فإن شيئاً متماثلاً جداً ينطبق على الفنون.

ففي هذا القرن فإن متنا ضخماً من الشعر قد كتب حول كم هو صعب أن تكتب القصائد. إننا نملك مخرجين سينمائيين ينجزون الأفلام حول كيفية صنع الأفلام - والشيء نفسه يتكرر مع المسرحيات. وعلى نحو مطابق فإن الرسم قد صار يعرض تقنياته الخاصة به. فالتأليف الموسيقي يعرض الآن أيضاً تقنياته الخاصة به. وباختصار فإن الفن قد أصبح مادة موضوعه الخاص به: لقد أصبحت الوسيلة الفنية ذاتها موضوعاً لاهتمامها الخاص بها. والآن ثمة توازٍ واضح هنا مع ما قد حدث لدور اللغة في الفلسفة. هل تعتقد بأن هذه التطورات مترابطة ببعضها البعض، أم أنك تعتقد بأن التوازيات متطابقة؟

• حسناً، إنها بالتأكيد ليست مجرد تطابقات. هناك معالم محددة لصيغة الحساسية للقرن العشرين التي تجعل اللغة تبدو لنا إشكالية بشكل ضخم. لكن دعني أختلف مع شيء واحد يبدو أنك تلمح إليه ضمناً. إنه ليس صحيحاً بأن الفلاسفة قد اكتشفوا اللغة في القرن الواحد والعشرين فجأة. هناك الكثير عن اللغة عند جون لوك - فهو قد كرس لها كتاباً كاملاً من المقالات. هناك نظرية للغة عند ديفد هيوم، وأبعد من ذلك فهناك من كتاب "ثيتاس" لأفلاطون نظريات فلسفية

للغة. إذاً، فإنها ليست بالشيء الذي اكتشفناه حديثاً. ولكن أعتقد بأن القضية التي يثيرها - وأنا أنفق معها بالكامل - هي أن الحياة الفكرية في اللغة العامة قد أصبحت تبدو إشكالية. إنها أصبحت تبدو (استعمل اقتباسك من برتراند راسل مرة أخرى) بأنها ليست مسألة شفافة. إنها ليست بالشيء الذي نقدر أن ندرك من خلاله ومباشرة حقيقة العالم الخفية. إنها في ذاتها مشكلة. أعتقد بأن هذا يعود على الأقل إلى فقدان الهائل للثقة الذاتية الفكرية، وإلى انحطاط الإيمان بالعقلانية الذي حدث قرابة آخر القرن التاسع عشر. لا أحد يعرف بالتقريب كيف يؤرخ لنشأة الحداثية، ولكن الوعي الذاتي الحاذق بخصوص وسيلة التعبير هو جزء من الحداثية في الفنون. بالتأكيد فإنه لا يمكن أن يكون مطابقاً تماماً أن الوعي نفسه بتعقيد وبطبيعة اللغة الإشكالية يوجد في الفلسفة. قارن فلسفة جون ستوارت ميل في اللغة مع فييتجنشتاين في إنتاجه الأخير، فأعتقد بأنك سوف ترى الانقطاع الذي أتحدث عنه.

• وبرغم ذلك، فما هي العوامل المحددة لتاريخ الفلسفة التي قد ساعدت أن تعيد وعي الفلاسفة الذاتي بخصوص اللغة إلى أعلى قمة تطورها في هذا القرن؟

حسناً، إن هذا موضوع معقد الآن إلى حد مدهش. سوف أحاول أن أختار منها زوجاً من النزعات أولاً وقبل كل شيء، هناك تطور تاريخي طويل الأمد. لقد طرح ديكارت منذ أكثر من ثلاثة قرون ماضية سؤالاً أساسياً في الفلسفة: "ما هي المعرفة؟" كيف هي المعرفة ممكنة؟ أعتقد بأنك إذا أخذت ذلك السؤال بكثير من الجدية (ونحن نفعل هذا في الفلسفة - فهو قد كان سؤالاً مركزياً على مدى ثلاثة قرون بعد ديكارت) فإنه سيقودك في نهاية الأمر، وحتمياً غالباً، إلى ما سوف يبدو سؤالاً أكثر أساسية، أعني "كيف يمثل عقلنا العالم البتة؟" إن السؤال: "ما هو المعنى؟" قد صار يبدو أسبق على السؤال: "ما هي المعرفة؟" ثانياً، هناك بعض التطورات التاريخية الراهنة الإضافية التي أدت مباشرة إلى الفكرة الحالية وهي أن فلسفة اللغة تكمن في مركز الفلسفة عينه. إن الفلسفة المعاصرة للغة تبدأ حقاً مع عمل الفيلسوف والرياضي الألماني جوتلوب فريجه، في أواخر القرن التاسع عشر، ومع برتراند راسل في بدايات القرن العشرين.

هوامش وملاحظات المترجم

1- جون سيرل "Jhon SEARLE" فيلسوف أمريكي ينتمي إلى تيار الفلسفة التحليلية. درس الفلسفة بجامعة أكسفورد البريطانية في الخمسينات من القرن العشرين، ثم اشتغل بها أستاذا لبعض السنوات. كما درس الفلسفة في جامعة كاليفورنيا بأمريكا (موطنه). فضلاً عن ذلك فقد ألقى جون سيرل المحاضرات كأستاذ زائر في العديد من كبريات الجامعات في العالم. وقد دعت هئية الإذاعة البريطانية وألقى سلسلة من المحاضرات نشرت في كتاب "العقول والأدمغة والعلم". من مؤلفاته البارزة: 1 - أفعال الكلام، 2 - التعبير والمعنى، 3 - القصص، 4 - إعادة اكتشاف العقل، 5 - بناء الواقع الاجتماعي، 6 - لغز الشعور، 7 - العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي.

2- براين ماجي "Bryan MAGEE" أكاديمي وفيلسوف بريطاني. درس بجامعة أكسفورد ببريطانيا، وعمل أستاذا للفلسفة بجامعة ييل (Yale) بالولايات المتحدة الأمريكية، وبكلية كينغز بجامعة لندن، وبجامعة أكسفورد. وهو كاتب، وناقد، وإعلامي. من مؤلفاته: 1 - الفلاسفة الكبار، 2 - اعترافات فيلسوف، 3 - فلسفة شوبنهاور، 4 - نتحدث الفلسفة (حوارات مع الفلاسفة المعاصرين البارزين) في جزئين.

3- الحداثة (Modernism): مصطلح يشير إلى الثقافة الأدبية، والفنية في النصف الأول من القرن العشرين. من مميزات الحداثة رفضها للتقاليد الأدبية السابقة عليها، وعلى وجه الخصوص تلك التقاليد التي تخص القرن التاسع عشر في الغرب ومجتمعاته البرجوازية. لقد أجمع مؤرخو الفكر المعاصر في الغرب بأن الحداثة مصبوغة بالصبغة الوجودية فيما يتعلق برؤية الكون. فضلاً عن ذلك فإن أقطاب الحداثة قد تعاملوا وسبروا الأسطورة كوسيلة من وسائل تنظيم الشكل. وهنا ينبغي التمييز بين الحداثة (Modernism) وبين الحداثة Modernity. إن هذه الأخيرة تمثل الشرط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والفكري لتأمل أنظمة القيم التي تتضمنها الحداثة، وكذلك للإنتاج الفني والأدبي والفكري في صيغته الحداثيّة. بمعنى آخر فإنّ الحداثة Modernity حسب تعريف الفيلسوف

الفرنسي جان فرانسوا ليوتار تتميز بكونها سرديات كبرى مثل فكرة التقدم في التاريخ، والماركسية، والتاريخ الكلي وهلم جرا.

4- التجربة (Experience): إن مصطلح التجربة الوارد في هذا الحوار الفلسفي لا ينبغي أن يفهم فقط فهما عاما على أنه تجريب أو إجراء تجربة في الواقع. إنه مصطلح فلسفي يعني وفقا لشروح لالاند في معجمه للفلسفة « المعرفة المباشرة، الحدسية، الفورية التي نحرزها عن الوقائع والظواهر ». أما عند عمانويل كانط، فإن التجربة « ليست مجرد مادة للمعرفة، بل إنها تتطوي على المعرفة، إذ هي تفرض لنا مجموعة من الارتباطات المنظمة » كما يؤول ذلك الدارس مراد وهبة. وبعبارة كانط فإن المعرفة تبدأ مع التجربة على ضوء الموضوعات التي تصدم حواسنا « فتسبب من جهة، حدوث التصورات تلقائيا، وتحرك من جهة أخرى، نشاط الفهم عندنا إلى مقارنتها، وربطها أو فصلها، وبالتالي إلى تحويل خام الانطباعات الحسية إلى معرفة بالموضوعات وهذا ما يسمّى بالتجربة - (كتاب نقد العقل المحض، ص 45).